نبىُّ اللَّه آدم عليه السلام

خلق اللَّه تعالى آدم بيده، فكلنا مخلوقون بقانون الخلق، ولابد أن يجتمع رجل وامرأة ليتم الخلق وفقاً لسنة اللَّه تعالى فى خلقه، وفى ذلك يقول الحق: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢] إذن.. فالتسوية من عند اللَّه، والروح من عند اللَّه. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لإبليس: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] أى أن آدم ليس مخلوقاً كغيره من البشر، ولكنه مخلوق بيد اللَّه تعالى مباشرة.

وكلمة «آدم» حينما نتكلم بها نجدها فى النحو مذكرة، والمذكر يقابله المؤنث. لقد خلق الحق الأعلى الذكورة والأنوثة؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل.

إذن.. كان ولابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد؛ فالذكر والأنثى هما بنو آدم، ومنهما ينشأ التكاثر، لكن العجيب أن اللَّه تعالى حين سمى آدم، ونطقناه اسمًا مذكرًا، وسمى «حواء»، ونطقناه اسمًا مؤنثًا، جعل سبحانه الاسم الأصيل الذى وجد منه الخلق هو «نَّفْسٍ» لقد قال الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. [النساء: ١].

لقد سمى الحق تعالى آدم بكلمة ﴿نَّفْسٍ﴾ وهى مؤنثة.

إذن.. فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير، ولكن التذكير هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمَّياتها الحقيقية. إن الحق سبحانه وتعالى يطلق على كل إنسان منا ﴿نَّفْسٍ﴾، وهى كلمة مؤنثة. وأن الحق قال عن آدم أنه ﴿نَّفْسٍ﴾ رغم أنه مذكَّر، إلّا أنه سُمِّيَ بالمؤنث وهى ﴿نَّفْسٍ﴾ ولم يقل الحق خلقكم من نفس واحد بل قال: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾.

وحينما تكلّم الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ تعنى مجموع الإنسان. وهكذا نعرف أن كلمة إنسان تطلق مرة على المذكر، ومرة أخرى على المؤنث، إذن فالحق تعالى قد أورد مرة لفظا مذكرًا، ومرة أخرى أطلق لفظًا مؤنثًا، وذلك حتى لا نقول إن المذكر أحسن من المؤنث، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط.

واللّه سبحانه وتعالى حينما تعرض لقصة آدم عليه السلام فى سورة البقرة لم يوضح لنا كيف تم خلق حواء. ولكن الخالق الأعز الأكرم أدخل حواء فى خطابه لآدم عليه السلام: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ويوضح الحق لنا أن كل خلق من خلقه إنما هو خلق من زوجين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. [النساء: ١].

إن حواء لو كانت ضلعًا من آدم لقال الحقُ تعالى جعل منها زوجها، ذلك أن الجعل يعنى الأخذ من نفس المادة وصناعة ما يريد، وهو الحق المالك لكل الكون.

إن قول الحق تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هو تعبير عن خلق جديد مستقل، إننا عندما نأخذ مسألة الخلق هذه فى ضوء الأفكار والمعتقدات الباطلة السائدة الآن كالشيوعية وغيرها، فإننا نجد أن قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ كان المقصود به الرد على من سوف يأتون بعد زمن رسالة رسول اللّه ﷺ ونزول القرآن الكريم هؤلاء الذين قالوا: إن الحياة قد نشأت بقانون الصدفة، لكن هناك فيلسوفًا فرنسيًا هو «مونيه» أراد أن يرد على من قالوا: إن الحياة قد نشأت بقانون الصدفة تساءل ذلك الفيلسوف: كيف يكون أمر الخلق صدفة؟! وهو أمر محكوم بنظام دقيق وقوانين محكمة، أمن المعقول أن توجد صدفتان فى آن واحد؟! صدفة تخلق رجلا ؛ وصدفة تخلق امرأة من جنس الإنسان، وتختلف مع الرجل فى النوعية بحيث لو التقى الرجل بالمرأة لنشأ عن لقائهما جنين قد يكون رجلاً وقد يكون امرأة بعد أعوام تكاد تكون معروفة، هل هذا الأمر المنظم بدقة يمكن أن يكون صدفة؟! هل يمكن لهذا النظام الدقيق الذى أوجد اللقاء بين الرجل والمرأة على لذة ومتعة واشتهاء ليكون بهذا اللقاء عمران الكون على أسس وقواعد محسوبة من التكليف . . هل يمكن أن يكون ذلك الأمر صدفة؟ إذا كانت الصدفة تملك هذا القدر من التنظيم الدقيق فأنا أسميها اللّه تعالى!. هكذا يقول الفيلسوف الفرنسى.

إنه يرفض أن يكون مع الملاحدة الذين يرفضون نظام الكون والخضوع لقوانين التكليف فيصل بالاستنباط العقلى إلى قدرة الخالق جل وعلا.

وعلى هذا يمكننا أن نفهم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى خلق حواء مثلما خلق آدم، وكما أوضح لنا الحق تعالى أنه خلق آدم من طين.. فكذلك خلق حواء. ولنا أن نفهم أن كلمة زوج لا تعنى الرجل فقط، ولكنها أيضًا تعنى المرأة، فالمرأة زوج، والرجل زوج، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

إن كلمة زوج تطلق على الرجل عندما يتزوج، وتطلق أيضًا على امرأته، تمامًا كما أن كلمة توأم تطلق على الوليد الذى يشاركه وليد آخر فى نفس الرحم ويسميان توأمين، ذلك أنه من الخطأ الشائع أن تقول زوج على الرجل والمرأة معًا، إن المرأة والرجل معًا هما زوجان. وهكذا نفهم من سياق ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى أن حواء قد خلقها اللّه خلقًا مستقلاً كما خلق آدم. ولنا أن نتأمل حكمة الخالق الذى ربط الرجل والمرأة برباط تحمل مسئولية عمران الكون، بأن تبدأ المسئولية بينهما برغبة ولذة، ثم تعب وتضحيات فى سبيل الأبناء، إن التأمل للحظة لقاء الرجل بالمرأة فى فراش الزوجية والاستمتاع الحسى فى حدود أوامر اللّه، هذا التأمل يجعلنا نقول: إنه لولا عطاء الحق تعالى لنا من انسجام وحنان ومودة وترابط ولذة، لما كان قادرًا على تعمير الكون. إن قمة اللقاء الذى يحدث منه التوالد مصحوبة بلذة، وذلك من حكمة الخالق جل وعلا حتى لا يهرب الإنسان من تعمير الكون بالذرية التى تخلفه عملاً فى الأرض.

إن الذين يقولون: إن الخلق تم صدفة ويتم بالصدفة هم جهلاء بحقيقة العلم وبجوهر الإيمان، أى صدفة تلك التى تملك القدرة على خلق بويضة من مبيض المرأة تنزل إلى الرحم فى وقت لا يعلمه إلا اللّه تعالى وحده؟!، ويأتيها الإخصاب من حيوان منوى خلقه اللّه تعالى ضمن ملايين الحيوانات المنوية فى الكيس الحامل لهذه الحيوانات بالجهاز التناسلى للرجل. ثم يحدث الإخصاب وتكوين العلقة فالمضغة وكساء العظام لحمًا، ثم إنشاء الإنسان ليولد ليكون من الميلاد ذكر وأنثى وشعوب وقبائل، لذلك لا يمكن أن تكون صدفة لأن الصدف لا نظام لها، أما خلق الإنسان فله نظام حكيم وضعه إلهٌ قادرٌ خالقٌ، قدر لكل خلق زمانًا ومكانًا وهدفًا، إنه يخلق على هدى وعلى قدر.

إن الإحصاء المادى هو دليل إيمان باللّه تعالى. إن التعداد السكانى يزداد،

ولو أردنا معرفة تعداد سكان الأرض فى القرن السابق لوجدناهم أقل بكثير من زماننا هذا. ولو عدنا إلى الوراء لأكثر من قرن لوجدنا التعداد ينقص أكثر، ولو استمرت عملية قياس السكان بالقياس إلى الأزمان الماضية فلا بد أن نصل إلى آدم وحواء ليثبت صدق قول اللَّه جل وعلا: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. هذا فى أمر خلق آدم وحواء.

وفى سورة البقرة يقص علينا ربنا تبارك وتعالى قصة الخلق الانسانى فيقول جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

هنا تكون بداية التأمل؛ هى قول الحق تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، إن التنبيه هنا لكل قارئ للقرآن الكريم أن له خالقًا ورباً، هذا الخالق الرب اسمه ﴿ٱللَّهُ﴾، إنه اسمٌ لواجد الوجود صاحب القدرة المطلقة فى كونه وخلقه.

عندما نتأمل هذا القول نجد أنه يتضمن: **أولاً**: بلاغًا من اللَّه تعالى للملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفة.

ثانيًا: أن الملائكة لم يسألوا عن الأرض كأنهم على علم مسبق بها، ولم يسألوا عن الخليفة بل فهموا عن اللَّه تعالى مراده.

ثالثًا: إن استدراك الملائكة كان على الإنسان نفسه الذى أخبرهم اللَّه تعالى أنه خليفته، فهم يرون أنه سوف يفسد فى الأرض ويسفك الدماء. ومن ذلك نستنبط أن الملائكة كانوا على علم بوجود الأرض. ومن ذلك نستنبط أيضًا أن الملائكة رأت خلقًا آخر عاش على الأرض وأفسد فيها، فكأنهم عاشوا التجربة من قبل ولكن عليهم أن يذعنوا لأمر اللَّه تعالى الذى يأمر فلا يعصيه أحدٌ. واللَّه تعالى حينما أخبر الملائكة فهو لم يخبر كل جنس الملائكة، إنما أخبر هؤلاء الملائكة الذين لهم صلة بخدمة الخليفة القادم على الأرض، وصيانته وحفظه، كالمدبرات أمراً، والحافظة، والرقيب، العتيد.

وعندما نتأمل قول الحق تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فإن التأمل لكلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ يوضح لنا أن الإنسان إنما جاء ليخلف بعضه بعضاً، ونفهم أيضًا

أن الخليفة هو من استخلفه اللّه تعالى فى الأرض وجعل الأشياء تنفعل له، يوقد النار فتشتعل، يزرع الأرض فتنبت، يستأنس الحيوان فيأنس له الحيوان، يستخدم الأنعام فى الطعام والتنقل ويأخذ منها اللبن ليشربه والصوف ليغزله فتخضع الأسباب للإنسان، وغفل الإنسان عن حقيقة وضعه على مر التاريخ، نسى الإنسان أنه مستخلف فى الأرض، وظن الإنسان أنه الأصل الأصيل فى الكون، وخضع الإنسان لوهم أنه خالد فى الأرض وليس مستخلفًا فيها له ميلاد وموت.

الحق سبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقية المخلوقات. ونحن لا ندَّعى أن آدم هو أول من عمَّر هذا الوجود.

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

فمن الممكن أن يكون هناك خلقا كثيرًا قد سبقوا آدم فى الوجود، ولكن آدم هو أول الجنس البشرى. وعندما خلقه اللّه تعالى علَّمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يتعامل مع مجريات الأحداث فى الكون. فآدم لو لم يكن قد تعلَّم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده، ولما استطاع على سبيل المثال أن يقول لابن من أبنائه: انظر هل أشرقت الشمس أم لا؟

إذن.. كان لابد لآدم من معرفة الأسماء كلها، ولابد أن هناك من علَّمه إيَّاها؛ لأن اللغة بنت المحاكاة، فلا أحد يستطيع أن يتكلم إلاَّ بعد أن يكون قد سمع. الواحد منا سمع من أبيه، الآباء سمعوا من الأجداد؛ وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم، فممن سمع آدم حتى يتكلم؟، إنها مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل، فمن الذى أسمع آدم ليتكلم بأول كلمة؟ لابد أنه اللّه تعالى.

يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] والواحد منا عندما يُعلِّم ابنه الكلام، فهو لا يعلِّمه الأفعال، لكن يعلمه الأسماء، أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلمها. إن الواحد منا يعلم ابنه أسماء الأشياء، يقول الإنسان لابنه: هذا كوب، وهذه منضدة، وذلك طبق، وهذا طعام، لكن لا أحد يقول لابنه «شرب» معناها كذا، و «أكل» معناها كذا. إن الذى يتعلمه الطفل أولاً هو الأسماء، هذه هى الخميرة الأولى، وبعد ذلك تأتى المزاولات والممارسات فيتعلم الإنسان الأفعال.

إذن.. اللّه تعالى قذف بالإلهام كل الأسماء فى قلب ووجدان وإدراك آدم؛ بدليل أن «المسميات» قد تم عرضها على الملائكة فلم تعرف اسماءها، ولم تتعرف الملائكة على المسميات، وذلك من طلاقة قدرة اللّه تعالى عندما ألهم آدم فتعلم

آدم الأسماء، وعند تلك النقطة يتساءل البعض عن السر فى اختلاف اللغات من مكان إلى آخر رغم أن الخالق الأكرم قد علم آدم أسماء المسميات الموجودة فى الكون، لماذا إذن هناك ألوان من اللغات والألسنة؟ والإجابة هى: إن تنوع فترات التاريخ، وتتبع انتشار الإنسان على الأرض يجعلنا نجد أن كل مجموعة من اللغات تقترب من بعضها لتكون لغة واحدة؛ فالفرنسية والإنجليزية والإيطالية مأخوذة عن اللاتينية. والعبرية والسريانية لهما علاقة باللغة العربية. بل إن اللَّهجات التى يتكلم بها العالم العربى تتنوع فى اللغة الواحدة.

وهكذا نعرف أن اللغة هى وسيلة لمعرفة أسماء الأشياء. وهكذا نعرف أن اللَّه قد قذف بالإلهام أسماء الأشياء فى إدراك آدم عليه السلام، وكان إدراك آدم توقيفياً، أى أنه عرف كل اسم لكل مسمى كما خلقه اللَّه تعالى، ثم نزل إلى الأرض لتتطور هذه المسميات ويعمل العقل الإنسانى لتطوير وتحديد الأشياء مما استدعى أن يضع لها أسماءً مشتقة مما تلقاه آدم عليه السلام من الحق سبحانه وتعالى.

❁❁❁

جنة آدم عليه السلام

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، كثير من العلماء قالوا: إن المقصود بالجنة هى جنة الخلد فى الآخرة، وهنا تساءل الناس، كيف يمكن أن يدخل إبليس جنة الطائعين للَّه تعالى وهو عاص؟ وكيف يمكن أن يدخل جنة الخلد ثم يخرج منها، مع أن اللَّه تعالى قد كتب أن كل من يدخلها لا يخرج منها؟

نقول لهؤلاء جميعاً: إنكم لم تفطنوا إلى مدلول كلمة جنة، فهذا شيء يسمى غلبة الاستعمال. ذلك أن اللفظ يكون له معان متعددة، ولكنه يؤخذ عادة وعرفا على معنى واحد، بحيث إذا سمع اللفظ انصرف الذهن إلى هذا المعنى بالذات، ومن هذا المدلول حين يسمع كلمة جنة، ينصرف ذهنه إلى جنة الآخرة؛ لأنها هى الجنة الحقيقية. ولكن حينما يأتى اللفظ فى القرآن الكريم لابد أن نعرف استعمالاته، لأن المتكلم هو اللَّه تعالى.

ومن الجائز أن يكون للفظ فى اللغة معان متعددة، ولكن فى الدين فإنه يأخذ المعنى الشرعى الاصطلاحى، مثلاً حين تسمع كلمة الحج، تقول إن معناها: أن تقصد بيت اللَّه الحرام. ولكن الحج فى اللغة معناه: القصد فقط، فإذا قصدت

الذهاب إلى مكان تقول: حججت إليه، فلما جاء الإسلام أصبح المعنى الإسلامى الفقهى الشرعى لكلمة الحج: هو أن تقصد بيت الله الحرام لأداء المناسك، كلمة صلاة مثلا معناها فى اللغة: الدعاء، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أى ادع لهم، فلما جاء الإسلام أخذها إلى معنى العبادة المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بكل شروطها.. هذه هى الصلاة. وهكذا أصبح لهذه الألفاظ معان فقهية إسلامية بحيث إذا أردنا أن نستخدمها فى معناها اللغوى الأصلى لابد أن نبين ذلك للناس. وهذا ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة جنة ساعة أن ننطق بها ينصرف المعنى إلى جنة الآخرة؛ ولكن الجنة فى اللغة معناها: الستر، ولذلك يطلق على المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة تستر الإنسان وهو يمشى فيها كلمة: الجنة؛ وفى نفس الوقت فإنها بثمارها الكثيرة المتنوعة تعطى الإنسان ضروريات وكماليات الحياة. ولذلك فهى تستره عما جاورها، ويستطيع أن يبقى فيها مستترًا ولا يخرج، فهى ستر دائم يعيش فيه مستورًا ويجد فيها حاجته، هذا هو المعنى اللغوى للفظ الجنة. فإذا جئنا إلى القرآن الكريم وجدنا أن القرآن استخدم الجنة فى المعنيين، معناها اللغوى ومعنى جنة الآخرة، وإذا قرأنا القرآن الكريم نجد ما يلى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. وقوله جل جلاله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

نلاحظ هنا أن الاستخدام فى الآيات الثلاث للفظ جنة لا يعنى جنة الآخرة؛ بل يعنى جنات الدنيا، على أن بعض العلماء يقول: إن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين جنات الدنيا وجنة الآخرة، فلفظ الجنة يطلق على جنة الآخرة وحدها، ولفظ جنة من غير الألف واللام يطلق على جنات الدنيا.

نقول لهم: إن هذا القول غير صحيح بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]. والحديث فى الآية عن جنة أو حديقة لها ثمار فى الدنيا. إذن.. فالألف واللام لايميزان اللفظ ولا يجعلانه ينصرف إلى جنة الخلد فى الآخرة. وبعض العلماء يضيف: أن الله تعالى أدخل آدم وزوجه جنة الخلد، وعندما عصيا أنزلهما إلى الأرض، ولو أنهما لم يعصيا لظلاً فى الجنة.

نقول لهؤلاء: أنتم أبطلتم مرادات الله فى خلق آدم، لم يقل الله تعالى: إنه

خلق آدم ليعيش فى الجنة؛ بل خلقه ليعيش فى الأرض. وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

إذن.. فآدم مخلوق للأرض ليعمرها ويعيش فيها، ولذلك لا يقول أحد إنه لو لم يرتكب آدم معصية لبقى فى الجنة، وكان السؤال الذى يجب أن يسأل هو: أنه ما دام آدم خلق خليفة للّه تعالى فى الأرض، فلماذا سكن الجنة أولاً؟

نقول: إن لذلك حكمة، فآدم خلق ليتلقى المنهج من اللّه تعالى فى «افعل ولا تفعل» ، افعل كذا فإن لم تفعله فسدت الأرض، ولا تفعل كذا فإن فعلته فسدت الأرض، وما لا يظهر منه فساد تركه اللّه تعالى مباحًا فى أن يفعله آدم وذريته أو لا يفعلوه، فمنهج اللّه أساسًا يمنع أن تفعل ما يحدث الفساد فى الأرض، ويأمرك أن تفعل مايمنع الفساد فى الأرض، ولكن هل ترك آدم هكذا دون أن يوجد مَنْ يحاول أن يفسد عليه منهج اللّه؟ لا.. فقد جاء الشيطان ليفسد منهج اللّه فى نفس آدم، فيزين له أن يفعل ما نهاه اللّه عنه، وألا يفعل ما أمره اللّه به، فإذا قال اللّه لآدم: صلِّ. زين له الشيطان ترك الصلاة، وإذا قال اللّه له: لا تشرب الخمر، زين له الشيطان أن يشرب الخمر.. عملية إفساد للمنهج. واللّه سبحانه وتعالى يريد لخليفته فى الأرض أن يتبع منهجه حتى يسعد فى الدنيا والآخرة.

ولذلك كان لابد أن يتم تدريب آدم بالتجربة العملية على ما سيحدث له إذا أطاع المنهج، وما سيحدث إذا عصاه، كان لابد أن يتلقى تدريبًا عمليًا فى «افعل ولا تفعل»، فالمنهج لابد أن تأتى معه التجربة حتى يكون التطبيق صحيحًا.

أى افعل ما تشاء بالنسبة للتمتع بثمار هذه الجنة وخيراتها، ولا تفعل أى: لا تقترب من الشجرة، وهكذا منهج اللّه تعالى فى الأرض، يبيح لنا الكثير والكثير جدًا، ويحرم علينا القليل والقليل جدًا. وحذر اللّه سبحانه وتعالى آدم من عدوه وهو إبليس، فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه ١١٧]. ذلك أن عداوة إبليس ثابتة بامتناعه عن تنفيذ أمر السجود لآدم، ثم بعد ذلك بما أظهره من نوايا: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]. إلى آخر الآية الكريمة.

إذن.. لابد أن نعلم أن الجنة التى عاش فيها آدم ليست هى جنة الخلد؛ لأن الحياة فى جنة الخلد لا تأتى إلا بعد التكليف، فهى جزاء لاتباع منهج اللّه تعالى، وليست سابقة على هذا المنهج، كما أن جنة الآخرة هى جنة الخلد، من يدخلها لا يخرج منها أبدًا، وآدم مخلوق للأرض، إذن فالجنة التى عاش فيها آدم هى مكان

أعده اللَّه سبحانه وتعالى له ليتم تدريبه فيه على المنهج، أمرًا بقوله تعالى: ﴿فَكُلَا﴾ ونهيًا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾.

❁❁❁

سجود الملائكة لآدم

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

قال بعض العلماء إن أمر اللَّه تعالى بالسجود هنا المراد به هو التحية والتعظيم وليس السجود الفعلى، لأن السجود لغير اللَّه منهى عنه.

ولكن السجود هنا لابد أن يؤخذ بمعنى السجود.. لماذا؟ لأن الملائكة لم تسجد لآدم، وإنما سجدت لأمر اللَّه تعالى بالسجود لآدم، تماما كمسألة القبلة عندما أمرنا اللَّه تعالى أن نتجه فى الصلاة إلى المسجد الأقصى. لم يكن المسلمون يسجدون للمسجد الأقصى، ولكن لأمر اللَّه تعالى فى الاتجاه إليه، فلما تغير الأمر وأصبحت الكعبة هى القبلة اتجه المسلمون إلى الكعبة، ولكنهم لا يسجدون للكعبة ذاتها، ولكن لأمر اللَّه سبحانه وتعالى بالسجود للكعبة.

إذن.. السجود هنا لأمر الخالق، والعمل بالنية، والنية فى سجود الملائكة لم تكن لعبادة آدم، ولكن لطاعة أمر اللَّه، وأمر اللَّه لابد أن يطاع.

وبعض الناس يسأل: لماذا كان سجود الملائكة لآدم؟ نقول: إن اللَّه تعالى سخر الكون كله لآدم وذريته، وسخر من الملائكة من يخدمون آدم وذريته، منهم المدبرات أمرًا الذين يقومون بتنفيذ أوامر اللَّه بالنسبة للإنسان، ومنهم الحفظة الذين يكتبون كل مايحدث من البشر، فكأن سجود الملائكة هو سجود ألفة ومعرفة، والذين سجدوا هم الموكلون بخدمة الإنسان فى الأرض، أما الملائكة العالون المقربون إلى اللَّه فإنهم لم يسجدوا، بدليل قول اللَّه سبحانه وتعالى لإبليس حينما رفض السجود: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]. أى: من الملائكة العالين الذين لم يشملهم أمر السجود.

❁❁❁

حقيقة جنس إبليس

قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أخرجه من جنس الملائكة. وقوله تعالى:

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ تأكيد لكون إبليس من الجن؛ لأن الجن كالإنسان مخلوق له اختيار، يستطيع أن يطيع، ويستطيع أن يعصى. ومادام له اختيار فإنه ليس من الملائكة؛ لأن الملائكة ليس لهم اختيار، فهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وهكذا نجد أن قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾. لا يدلُّ على أن إبليس من الملائكة؛ لأن الملائكة لا يستطيعون المعصية.

وبعض الناس يقول: إن النص القرآنى فيه التزام بأن إبليس من الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، ولكننا لابد أن نحمل نص الالتزام على النص القرآنى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، وهكذا تأتى هذه الآية لتعطينا حكمًا بأن إبليس كان من الجن.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الملائكة ليس لهم اختيار؛ ولذلك فإن الإنس أو الجن الذى يكون قادرًا على المعصية ويطيع، ويأتى اللَّه عن طواعية واختيار يكون فى هذه الحالة أعلى منزلة من المَلَك؛ لذلك كانوا يسمون إبليس: طاووس الملائكة، لأنه كان يزهو فى حضور الملائكة بإلزام نفسه بمنهج اللَّه تعالى، فكان يزهو على الملائكة بأنه صالح أن يطيع أو أن يعصى ولكنه تميز بالطاعة، وهذا الغرور هو الذى أوقع إبليس فى المعصية. ومادام إبليس قد تلقى أمر السجود؛ فلابد أنه حضر البلاغ الأول حين قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾، وسجد المفطورون على الطاعة، وهم الملائكة، وكان من المفروض أن يسارع فى الامتثال لأمر اللَّه تعالى أولئك الذين لهم اختيار على الطاعة أو المعصية، وهؤلاء قد يكونون أدنى خلقا من حيث المادة من الملائكة، ولكنهم يكونون أكثر قربى إلى اللَّه تعالى؛ لأنهم ألزموا أنفسهم بالطاعة اختيارًا وحباً للَّه تعالى.

وهكذا إذا كان أمر السجود قد شمل الملائكة، وهم أعلى خلقًا فى المادة إذ إنهم خلقوا من نور، فلابد أن يشمل الجن الذى خلق من نار حتى ولو لم ينص عليه. ولكن مادام إبليس من الجن، فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار ففسق عن أمر ربه.. لماذا؟ أخذته الكبرياء حتى فى أمر اللَّه تعالى، فجاء فى القرآن: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ثم يقول: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، استكبارًا واستعلاءً على من خلقه.. أتوجد معصية أكبر من ذلك؟!

وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أى من الذى حجز بينك وبين السجود؟ ولا توجد ﴿أَلَّا﴾ زائدة أو ﴿أَلَّا﴾ صلة، بل إنها لتؤكد لنا المعنى بأن إبليس امتنع عن السجود من نفسه دون أن تقهره قوة على الامتناع.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: ١٢]، دليل يقطع باليقين أن أمر السجود يشمل إبليس، وإلاً ما قال له اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾.

إذن.. إبليس كان داخل فى الأمر الذى صدر للملائكة بالسجود.

جاء الرد من إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، ولكن الحق تبارك وتعالى لم يسأل إبليس: ما هى منزلتك بالنسبة لآدم، ولكنه سأله ما منعك؟. وكان الجواب يقتضى أن يقول: منعت قهرًا، أو أنا ممتنع عن السجود، ولكنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؛ فكأن إبليس كان يبحث فى ذهنه عن مبرر أو سبب لعدم السجود.

وعندما قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، كان هذا كبرًا ومعاندةً؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذى خلق، وهو الذى يعرف من هو خير ممن. ولكن إبليس أراد أن يعدل الأمر على اللَّه تعالى، ويرد الأمر على الخالق بينما هو مخلوق، فكأنه عليه لعنة اللَّه يُخطِّئ الحق سبحانه وتعالى فى أمره ويقول له: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، فكيف تأمر الأعلى أن يسجد للأدنى.

وهكذا أخذ الكبر من نفس إبليس درجة جعلته يعتقد ـ والعياذ باللَّه ـ أنه أعلم من الحق سبحانه وتعالى، وأن من حقه أن يعدل الأمر على اللَّه تعالى، ويخبره بما يجب أن يفعل، ولم يكن جزاء لهذه المعصية أقل من الطرد من رحمة اللَّه. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ والهبوط معناه الانتقال من منزلة أعلى إلى منزلة أدنى. وبعض العلماء يحاول أن يستدل على ذلك أن الجنة التى وجد فيها آدم وإبليس كانت فى أعلى عليين. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ ولكننا نقول: إن الهبوط لا يستدعى مكانًا أعلى ومكانًا أسفل، وفرق بين هبوط المكان وهبوط المكانة؛ لذلك عندما قال الحق سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: ٦١]. لم يكن بنو إسرائيل يعيشون فى مكان فى السماء، بل كانوا فوق الأرض، وعندما قال اللَّه تعالى لنوح: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: ٤٨] كان يعنى الهبوط من السفينة، ولا يقتضى ذلك النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى.

وعلى أية حال فإن الهبوط قد يكون من مكان إلى مكان، أو من مكانة إلى مكانة، فكأن إبليس كان فى حضرة الملائكة عندما ألزم نفسه بالطاعة، ولَمَّا عصى وأصر على المعصية نزل من مكانه الذى كان فيه إلى أسفل السافلين. ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣].

فكأن اللَّه تعالى قد أعطانا حيثية طرد إبليس من رحمته، فإبليس قد تكبر على أمر اللَّه ، فالامتناع عن أمر المعبود من العابد هو نوع من الكبرياء على المعبود. ومادام إبليس قد تكبر على أمر اللَّه تعالى، فهو ليس أهلاً لأى مكانة عالية، فكأن طاعة إبليس قبل معصية السجود هى التى أعطته مكانة عالية، ومعصية إبليس فى أمر السجود هى التى جعلته فى أسفل السافلين، إذن فليس منا من هو له منزلة عالية بذاته، ولكن العمل والطاعة هما اللذان يعطيان الإنسان علوا عند اللَّه تعالى، والمعصية هى التى تعطيه المنزلة السفلى، وفى هذا حكمة من الحق سبحانه وتعالى، فالجان لأنه مخلوق من نار يمتاز بالسرعة واختراق الحواجز والنفاذ من الجدران والنفاذ من جسم الإنسان. و «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»(١) مثل الميكروب، تلك طبيعة المادة التى خلق منها الجان، مادة النار، فأنت إذا جلست خلف جدار، ووضعت فى الناحية الأخرى تفاحة، لا تستطيع التفاحة أن تتعدى بشكلها ولونها وطعمها الجدار، وتنفذ إليك، ولكن إذا كانت هناك نار خلف الجدار فإن حرارتها وإشعاعها يتعديان إليك، لأن طبيعتها الشفافية.

ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعلِّمنا درسًا للجن والإنس معًا، فقال: لا تعتقدوا أن العنصر الذى خلقتم منه يعطيكم تمييزا؛ بل إرادة الخالق وحدها هى التى تعطى هذا التمييز

۞۞۞

غواية الشيطان لآدم عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢] دلى مأخوذة من دلى رجليه فى البئر أى أنزلهما فى البئر ليرى إن كان فيها ماء أم لا، أو دلى حبل الدلو أى أنزل الدلو فى البئر بحثا عن الماء، ومعناه أنه يفعل الشىء مرة ومرة. والغرور هو الإغراء الذى يوقع الإنسان فى المخالفة. وهنا لنا وقفة. . عندما أقسم إبليس لآدم وحواء اعتقدا أنه ينصحهما، ولكن المسألة لم تكن مجرد الأكل من الشجرة؛ بل لابد أن إبليس فى أول الأمر خدعهما ليقتربا من الشجرة، ثم زين لهما ثمارها، ثم بعد ذلك أغراهما بالأكل،

(١) أخرجه البخارى [٣٢٨١] ومسلم [٢١٧٥/ ٢٤] عن صفية بنت حُيى رضى اللَّه تعالى عنها.

أى أن المعصية تتم على مراحل وليس على مرحلة واحدة. وتنسج عودا عودا كالحصير؛ ولذلك فإننا لابد أن نتنبه إلى أن اقترابنا من أماكن المعصية لابد أن يوقعنا فيها. والنفس المؤمنة تتبين الحق بمجرد الوقوع فى المعصية ولا تتمادى فيها. ولذلك قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾. ولم يقل «فلما أكلا» من الشجرة، لأن الأكل يقتضى إعادة المعصية مرات ومرات، بينما مجرد التذوق يتبين منه أنها حدثت مرة واحدة فقط، أى أن المعصية لم تتكرر؛ بل حدث التنبه بمجرد حدوثها، ولم يكن هناك إصرار على المعصية، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]. والخصف هو أن تدارى شيئا بشىء آخر كما تدارى خرقا فى الثوب بقطعة القماش، ولابد أن تكون قطعة القماش أوسع قليلا من الخرق. ولذلك كانت المداراة ليست بورقة من أشجار الجنة؛ بل بأكثر من ورقة حتى تدارى منطقة العورة. وطفقا معناها: شرعا فى العمل، وحينئذ ماذا حدث؟

قال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] ذلك أنه من عدل اللّه تعالى ألا تقع عقوبة إلا بتحذير، ولذلك يقول الحق: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] أى أن اللّه تعالى لابد أن يحذرنا أولا من المخالفة ويقول: إن الجزاء سيكون كذا وكذا، فإذا تمت المخالفة أصبح العقاب حقا وعدلا. ولذلك لا يوجد فى التشريع الإلٰهى ما يسمى بالقوانين بأثر رجعى، فلا تحريم فى العدل الإلٰهى إلا بنص، والنص هو نهى اللّه تعالى عن أن يقربا الشجرة، وتحذيره لهما من أن الشيطان عدو. وقال الحق: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾. ولم يقل لقد نهيتكما عن هذه الشجرة، لأنه لم يشأ أن يجعل النهى خبرا منه؛ بل أراد أن يأخذ الحكم من أفواههما. كان من الممكن أن يقول نهيتكما عن هذه الشجرة، أو أنا نهيتكما عن هذه الشجرة. ولكنه لم يستفهم بالإثبات؛ بل استفهم بالنفى وقال: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ لأن الجواب من أفواههما سيكون: بلى أنت يا ربنا نهيتنا وفى هذا توكيد للخبر على وجه التأكد واليقين.

حينئذ وقف آدم وحواء أمام اللّه تعالى مقرين معترفين بالخطأ والمخالفة وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

تلك هى الكلمات التى قال اللّه سبحانه وتعالى عنها: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وهذه الكلمات هى اعتراف بالذنب، واعتراف بأن اللّه تعالى

حق، وقوله حق. وأن آدم وحواء لم يستطيعا أن يحملا نفسيهما على اتباع المنهج فظلما نفسيهما، ثم طلبا من اللّه تعالى المغفرة والرحمة لئلا يكونا من الخاسرين.

توبة آدم عليه السلام

إن اللّه تعالى درَّب آدم قبل أن يباشر مهمة الاستخلاف فى الأرض تدريبًا يؤهله لمسئولية الاستخلاف فى الكون، وكان التدريب فى مكان يكفل الحياة والراحة والأمن. وما كان اللّه تعالى ليزج بآدم فى ذلك الكون الواسع دون أن يدربه أولا على مهمته.

أوضح اللّه تعالى له الأوامر، وأجلى له النواهى، وحذره من الشيطان. ولم يكتفِ الخالق الرحيم بذلك، بل قدَّم لآدم الفرصة للتوبة إن أصابته الغفلة. وأعلمنا الحق كيف أن الشيطان قد ثأر لنفسه من آدم. لقد عصى الشيطان ربه فلم يسجد لآدم. وأراد أن يستأثر بآدم ليوقعه هو وأبناؤه فى الخطيئة. ولقد نبه اللّه تعالى آدم لعداوة إبليس، ومع ذلك وسوس إبليس لآدم وقاده إلى الخطأ.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ومعنى ذلك أن اللّه تعالى خلق التوبة، وأنه يقبلها؛ لذلك فلا وجود لواسطة بين اللّه تعالى وبين البشر، ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم، فخطأ آدم تم تصويبه، أما الخطيئة التى يرتكبها أى كائن من البشر فالخالق يعاقبه عليها، ومافعله آدم ليس خطيئة إنما خطأ، أما الخطيئة كالقتل وسفك الدماء والدَّسّ بين الناس، وإثارة الوقيعة بينهم، فالعقاب عليها إما فى الدنيا أو فى الآخرة؛ ولذلك يقول الحق: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ويجب ألاّ ينظر أبناء آدم إلى أبيهم آدم كأول من ارتكب الخطيئة، ذلك أن آدم لم يرتكب خطيئة، ولكن ارتكب خطأ، فهو ابن للغفلة والسهو، إن خطأ آدم ليس من ذنوب الاستكبار على اللّه كذنب إبليس، ذلك أن آدم قال هو وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، هنا كيف استغفر آدم ربه؟

لقد تحدث آدم إلى ربه بانكسار، لذلك تاب اللّه عليه، وتساءل كثير من

العلماء عن الكلمات التى علمها اللّه لآدم، حتى يقولها فيتوب عليه، قال بعض العلماء إن آدم قال: «اللّهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك تب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم». وقال بعض آخر من العلماء إن آدم قال: «اللّهم لا إله إلا أنت، سبحانك ربى وبحمدك، ربِّ إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا، فتقبل توبتى ياخير التوابين».

ونحن لا نقف عند نص الكلمات التى قالها آدم عليه السلام، راجيًا التوبة. لكن نقول إن آدم عليه السلام، أقرَّ بطاعة مطلقة لحقِّ الخالق الأكرم فى التشريع. طاعة آدم إذن هى اختيار وانكسار واعتذار ورغبة فى أن يقبل اللّه توبته محبة منه فى اللّه الخالق، ولو نظرنا إلى هذا الموقف ـ موقف طلب آدم التوبة ـ لوجدنا مبدأ نورانيًا هامًا فى حياة الجماعة. إن طلب آدم للتوبة، وقبول اللّه لتوبته، إنما هو وضع أساس هام لمسيرة الإنسان، إن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحاً، فيقبل على اللّه بانكسار، ولا يتمادى فى معصيته.

ولو أن باب التوبة لم يكن مفتوحًا، لتاه كل صاحب ذنب، ولفسدت الدنيا، ولكن يجب أيضًا ألاَّ نقبل على طاعة اللّه بغرور واستكبار. ويجب ألا يخطئ أحد ذلك الخطأ الذى قد يقع فيه البعض فيقول بغرور - حاشا للّه - وماذا للّه عندى؟ إن له عندى العبادة وها أنذا أعبده. إن اللّه تعالى لا يريد مثل هذا اللون من الإقبال على عبادته. إن اللّه يحب أن يقبل الإنسان على عبادته، وهو محب للّه الذى فرض هذه العبادة. ذلك أن العبادة ليست شكلاً تؤديه بدون مضمون، إن العبادة إجراء كامل من الخضوع التام للّه تعالى شكلاً ومضمونًا. إن هناك حكمة من خلق الإنسان، وله خاصية الاختيار، وليس مقهورًا على العمل الصالح. إن الحكمة هى أن اللّه تعالى أراد الإنسان حراً فى اختيار الطاعة أو العصيان، حتى يقبل الإنسان وهو طائع بحب، أو يعصى باختياره فينال عقابه.

ولنا أن نعرف أن الإنسان بطبيعته ليس خَيِّراً مطلقًا، ولا شريرًا مطلقا. ونحن نرى فى الحياة نماذج متنوعة من البشر. إنسان يتميز بعمل الخير، لكنه فى إحدى المرات قد يعمل عملاً خارجًا عن دائرة عمل الخير، ونرى إنسانًا آخر يتميز بعمل الشر، لكنه قد يقوم بعمل خارج عن دائرة الشر؛ ولهذا كان الثواب وكان العقاب. قد يسهو الطائع فيزل، فيعود إلى اللّه تعالى مستغفرًا. وقد يجرب العاصى طاعة اللّه تعالى فيدخل فى رحاب اللّه طالبًا المغفرة والتوبة. وبعض البشر من العاصين يقولون بينهم وبين أنفسهم، سنعمل ذلك العمل الخيِّر لأنه بسيط على الإنسان،

وقد يغفر اللَّه تعالى لنا به المعاصى. وقد نجد زلة بسيطة لبعض من يعملون الخير، فيسترها اللَّه تعالى عن عيون الناس إكرامًا لعمل الخير.

ولذلك يقول بعض الصالحين ممن ذاقوا حلاوة الإيمان: «رُبَّ معصيةٍ أورثت ذلاً وانكسارًا، خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا» كأنهم عرفوا أن الخالق أوجد الذلة للنفس البشرية حتى يعتدل ميزانها، ولا تدخل فى باب التيه بالعبادة.

كذلك أراد اللَّه تعالى لآدم عليه السلام، أن يوجد فى الأرض وهو غير محمل بعبء معصيته نتيجة الغفلة، وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لآدم: إياك أن تجعل معصيتك فى بالك لتصدك عن حركة الحياة، وخذ هذه الكلمات لتعلمها لأبنائك من بعدك حتى إذا عصى واحد منهم فإن باب التوبة مفتوح. يقول لنا العزيز الغفور: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وكذلك فقد أخبر سبحانه أن للتوبة شروطًا، لنسمعها فى قول اللَّه تعالى فى الآيتين: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾ [الزمر].

إن التوبة تستدعى أن ينيب ويرجع الإنسان إلى ربه، وأن يسلم الإنسان بكل جوارحه للَّه، وأن يسرع الإنسان بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعذاب فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة، ولابد أن يتبع التائب أفضل مانزل من الخالق إلى المخلوقات، وهو القرآن الكريم، ونحن نعرف من قصة آدم أنه تاب إلى اللَّه، وأن الخالق هو التواب الرحيم. وكأن اللَّه فى حديثه عن آدم يقول لنا: إننى توَّابٌ، لم أقبل توبة آدم وحده، ولكنى أقبل توبة أى عبد منكم يا أبناء آدم. ولنا أن نعرف أن حديث اللَّه عن نفسه أنه «تواب» يتضمن التوجيه المباشر لكل عاصٍ أن يسرع بالتوبة إليه، وإلى تلقِّى رحمته. وهو يغفر الذنوب جميعًا لمن يسلم قلبه وجوارحه إليه.

إن الخالق يستر على عباده رحمة بهم وترغيبًا لهم فى التوبة إليه. ولكن عندما يزيد الأمر عن الحد، فإن اللَّه يأخذ العبد بذاك الذنب الذى ارتكبه؛ لذلك فالمؤمن الواعى هو من يسمع قول أبى بكر الصديق رضى اللَّه تعالى عنه: «واللَّه إنى لا آمن مكر اللَّه»، إن صاحب هذا القول هو الصديق، الذى أسلم وجهه للَّه فور دعوة الرسول ﷺ له، وصدَّقه يوم أن كذبه الناس، هذا الصديق لا تغفل عينه

عن مراقبة نفسه، خشية أن يرتكب معصية فيعاقبه اللَّه تعالى عليها. لهذا فكلٌ منا عليه أن يعرف أن اللَّه تعالى ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وأنه ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

ما يستفاد من قصة آدم عليه السلام

اللَّه سبحانه وتعالى فى قصة آدم كلها يريد أن يبين لنا أن آدم يتمثل فى عنصرين، فى أنه بشر يصيب ويخطئ، ويخالف منهج اللَّه ثم يتنبه فيتوب. ولكن اللَّه تعالى أراد أن نعلم أن فى آدم أيضاً عنصر النبوة المعصوم من الخطأ فاجتباه وجعله نبياً، فآدم كبشر أكل من الشجرة فعصى، وآدم كنبى بلغ ذريته الرسالة. ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآنى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وهذه طبيعة البشر: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢] إذن.. فالاصطفاء جاء بعد المعصية. آدم فيه بشرية تخطئ وتصيب، وفيه نبوة معصومة، وهذه تتمثل فى الأنبياء من ذريته الذين عصموا من المعصية. لذلك لا يصح لنا أن نقول كيف يعصى آدم وهو نبى، نقول تنبه أن النبوة لم تأت إلا بعد أن عصى آدم وتاب وتقبل اللَّه تعالى توبته، وهو يمثل مرحلة البشرية كلها منذ خلقه إلى يوم البعث.

والبشرية تنقسم إلى قسمين: بشر يبلغهم اللَّه تعالى منهجه فيطيعون ويعصون ويتوبون، وأنبياء يبلغون عن اللَّه تعالى منهجه، وهؤلاء عصمهم اللَّه تعالى من الخطأ. والذين يقولون إن آدم كان مخلوقاً ليعيش فى الجنة، وأنه نزل إلى الأرض بسبب المعصية نقول لهم: افهموا عن اللَّه تعالى ساعة خلق آدم، قال اللَّه جل جلاله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] إذن.. فمهمة آدم الأساسية فى الأرض هى المقام فى طاعة اللَّه والحكم بالعدل بين خلقه، والفترة التى قضاها فى المكان الذى أطلق عليه الجنة كانت تدريباً على مهمته فى الأرض، فلا نقول إنه طرد من الجنة بسبب المعصية، لأن المعصية أعقبتها توبة مقبولة ثم نبوة، أما الجنة فكانت مرحلة من مراحل الإعداد للخلافة فى الأرض.